عبقري اللغويين
أبو الفتح عثمان بن جني

د عبد الغفار حامد هلال(*)

الحقيقة الناصعة أننا - بني العرب- أسسنا للأمم، وبددنا ظلمات الجهالة من آفاق هذا العالم الفسيح، فكان علمنا - بشتى ألوانه- كالماء والهواء، ينال كل إنسان في الكون، وقد شهد - ولا يزال يشهد- تاريخ العلوم والمعارف بالأيدي العربية التي امتدت للبشرية جمعاء، وفي كل فن من الفنون نبغ قبيلٌ من العرب؛ فكانوا العلماءَ الذين يُرْجَع إليهم، ويُفْخَر بهم.

لقد حاول - ولا يزال - لغويو الغرب من المُحْدَثين أن ينسبوا لأنفسهم في هذا المجال اللغوي- كغيره من المجالات الأخرى- فضلَ تحقيق النظريات المبتكرة، ووضع الأسس لها، والقوانينِ التي تحكم ظواهرها.

وفي واقع التاريخ ما يشهد بأن نظرياتهم التي ادعوا حداثتَها قديمةٌ كلَّ القدم، متغلغلةٌ في أعماق الماضي، تشير إلى العرب من قريب أو بعيد.

وفي القرون الهجرية الأولى- ولا سيما الرابع منها- تفتحت العلوم العربية، ونضجت، واستوت على سوقها.

إن أعلام العربية كالخليل وسيبويه وأبي علي الفارسي وابن جني، قد وضعوا أصولاً لغوية، هي وإن كانت مستمدة من طبيعة العربية فإنها فتحت الأبواب لدراسة اللغات الأخرى.

(*) أستاذ علم اللغة بكلية اللغة العربية، جامعة الأزهر- القاهرة.

وإن القرن الرابع قد أنتج ثروات علمية طائلة للغة في مجالاتها المختلفة- ولاسيما المعجمية والاشتقاقية- ورسم القوانين المنظمة لها، وأذاع أسرارها.

وعلى رأس الباحثين الذين كان لهم حظٌّ كبير في هذا الميدان اللغوي العبقري أبو الفتح عثمان بن جني، الذي ولد بالموصل- بالعراق- سنةَ إحدى وعشرين- أو اثنتين وعشرين- وثلاثمائة- على ما رجحنا- وتوفي ببغداد لليلتين بقيتا من صفر، سنةَ اثنتين وتسعين وثلاثمائة من الهجرة النبوية الشريفة، كما تُجمع مصادر التاريخ.

عاش هذا العالم العبقري في بلاط وكَنف البويهيين في بغداد وفارس، والحمدانيين في الشام، مغمورًا بفضلهم، بصحبة أستاذه أبي علي الفارسي أربعين سنة، فقد كان ينتقل معه في كل مكان يحل فيه، ثم توطدت صلته بهم من بعده، حتى لقد أهدى أعظم كتبه- وهو الخصائص- إلى بهاء الدولة البويهي، الذي تولّى الحكم سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، وتُوفّي سنة ثلاث وأربعمائة من الهجرة النبوية.

وعاش ابن جني حياته في هذا العصر، الذي حظي بنصيب وافر من الثقافة، على الرغم من الانقسام السياسي للدولة العباسية إلى دُوَيْلات صغيرة، يعتدي بعضها على الآخر، كالبويهيين والحمدانيين والأخشيد والفاطميين، وضعف الخلفاء العباسيين.

وقد تتلمذ ابن جني على أساتذة أجلاء غير أبي علي الفارسي، إلا أن صلته به طغت عليهم جميعًا؛ لطولها واستمرارها، وشدة تأثيرها. ثم كانت له صلات اجتماعية كثيرة بأعيان عصره، ومثقفيهم وأدبائهم.

فإلى جانب نبوغه وذكائه كانت له ثقافته التي استمدها من ثقافة عصره، من العلوم المترجمة وغيرها، وثقافته التي استمدها من الأساتذة والرواة، الـذين أخذ عنهم وارتشف من معينهم، ومن الأعراب الذين اتصل بهم وشافههم، كمحمد بن العساف الشجري، وغيره من بني عقيل.

إلى جانب الأصدقاء من ذوي النباهـة والشـأن كـالمتنبي والشـريف الرضي، وكذلك الحُكام وأصحاب السلطان كعضد الدولة وسيفها.

وقد تفاعل ابن جني مع ما ألمّ به من ثقافـات، وكـان معتزليـًا حنفـي المذهب، بصري الاتجاه النحوي واللغوي، وله منهجه في ذلك.

وهو لا يعطينا علم الآخرين دون تصرف، بل نجد فيه عبقريًا فذًا يجمع الأمور من هنا وهناك، ويضعها في بوتقة واحدة؛ ليُخرج شيئًا جديدًا.

وفي أخذه عن شيوخه – وغيرهم من العلماء- يبحث ويناقش ويجـادل، فإن وجد النتيجة التي وصل إليها هؤلاء صحيحةً سلَّم بها، وقد يقوّيها بجديد من عنده، وإن وجدها غير سديدة أبطلها بالمناقشة الجادة الموضوعية، وينتهي فيهـا إلى رأي آخر له أو لغيره.

وإن آراء ابن جني النحوية والصرفية واللغوية والتعليل لها سبقت فـي مضمار العلم كثيرًا من الباحثين فيه؛ ولا غَرْو فهو من دعاة التحرر في الرأي.

وقد وضع ابن جني أصولاً كثيرة لعلم النحـو واللغـة، وإذا صـح أن اصطلاح (فقه اللغة) قد برز- في القرن الرابع الهجري- فـإن الأولَـى بـه أن يطلق على آراء ابن جنيّ التي بذّ بها مَن قبله ومَن بعده.

ثم إن ابن جني يحتج للقراءات القرآنية، ويُفرد كتابًا خاصًا مـن كتبـه- هو المحتسب- للدفاع عن القراءات الشاذة التي صح سـندها، ويؤيـدها باللغـة

والنحو، على خلاف أستاذه الفارسي، الذي حكّم القياس في القراءات، ولم يأبه بالرواية والأثر.

وينحو ابن جني المنحى الأدبي؛ فقد توافرت له ملكة أدبية شاعرة، ويتبين من بعض نصوص شعره قوةُ شاعريته وثقافته الأدبية، وأن اللغة كانت طوعَ يده، في الأسلوب سهولة وغموضًا، وفي التجربة صدقًا وتجاوبًا.

يتحدث عن نفسه، ويفخر؛ فيقول:

وَحُلْو شَمَائِلِ الأَدَبِ ... مُنِيف مراتِب الحَسَبِ
أخى فخر مفاخِرُهُ ... عقائل عُقلة الأَدَبِ
له كلف بما كلفت ... به العلماء، م العربِ

إلى أن يقول:

فإنْ أصبح بَلا نَسَبِ ... فعلمي في الورَى نسبي
على أني أؤول إلى ... قُرُومٍ سادةٍ نُجُبِ
قَيَاصِرةٌ إذا نطقوا ... أرَمَّ الدّهر ذو الخطبِ

وله في الغزل من قطعة رقيقة:

غزال غير وحشيّ ... حكَى الوحشيُّ مُقْلَتَهُ
رآه الوَرْدُ يَجْني الورْ ... دَ فاستَكْساهُ حُلّتَهُ
وَشَمَّ بأنْفِه الرَّيْحا ... نَ فاستَهْدَاهُ زَهْرَتَهُ
وَذَاقَتْ رِيحَهُ الصَّهْبَا ... ءُ فاختَلَسَتْهُ نَكهَتَهُ

وله نثره العلمي والفني، وعبارته العلمية والفنية قوية النسج، محكمة الأسلوب واضحة، اللهم إلا إذا قصد التفاصح فيها، ويرجع ذلك إلى ثروته اللغوية الطائلة.

وله باع طويل في شرح الشعر؛ فشرح طائفة صالحة منه، أهمها ديوان شاعر العربية أبي الطيب المتنبي، الذي خصه بشرحين: أحدهما صغير، سماه "معاني أبيات المتنبي"، والثاني كبير، سماه "الفَسْر"، وديوان الحماسة لأبي تمام الطائي، الذي أضاف إليه سمةً لغوية بارزة، هي: بيان اشتقاق أسماء شعرائها.

وله اتجاه خاص في الشرح، هو الكشف عما في الشعر من غموض في الألفاظ، والإعراب، والعروض، والقوافي، والمعاني كذلك- بحسب المقام الذي يتطلبه- وقد سجل بهذا الشرح مرحلةً جديدة في كتابة شروح الأشعار القديمة والحديثة، وتطويرها بالانتقال بها من طور الوقوف عند تفسير الغريب، وتدوين اختلاف الروايات، إلى طور التوسع في هذا التفسير، وتشقيق الكلام في فنون شتّى من المعارف اللغوية والأدبية وغيرها.

وإذا كان بعض الشراح قد نقدوا ابن جني في هذا الشرح، كالواحدي والزوزني والمهلبي والمرزوقي، فإن المعاصرة والمنافسة هي التي دفعتهم إلى ذلك، من دون وجه حق في معظم ما نقدوه فيه، ويوجه النقد إليهم مثل ما فعلوا.

ويعد ابن جني من رواة اللغة الأمناء عليها، وكذلك يعد من رواة الأدب الحريصين على دقة الرواية وسلامتها، وهو يُوثّق الرواة، ويصفهم بالدقة والأمانة، ويثني عليهم؛ فمعظم ما نقل عنهم صدق، والمردود منه قليل من كثير.

وكثيرًا ما يروي ابن جني عن سابقيه، كأبي زيد الأنصاري، والأصمعي، وابن السكِّيت، وغيرهم. كما يورد ألفاظًا يعتقد أنه هو راويها الأول، وكذلك نجد كتب اللغة تسلمها له وتنسبها إليه، وله رسائل لغوية يرتبها على طريقة أشبه بالمعاجم اللغوية، وهذه الذخيرة لها قيمتها في إثراء اللغة.

ولابن جني ثروة علمية ضخمة تربو عن الخمسين كتابًا، منها الباقي، ومنها المفقود، ومنها المطبوع، ومنها المخطوط، ومن أعظم كتبه: الخصائص،

وسر صناعة الإعراب، والمنصف- شرح تصريف المازني- والمحتسب، وغيرها.

وقد انتفع بعلم ابن جني كثير من التلامذة والباحثين، وعلمه الغزير معين ثَرّ، ينهل منه رواد الثقافة وطلابها على مر العصور، ومؤلفاتُ اللغة والنحو من بعده مملوءة بالنقول عن كتبه، وبعض من نقلوا عنه أغار عليه، كابن سنان الخفاجي وغيره، وهذا في العصور القديمة.

أما في العصور الحديثة فإن أحدث النظريات العلمية في اللغة والأصوات، وفقه اللغة واللهجات وغيرها- يتناقلها المحدثون في تفكيرهم وكتبهم عنه، بل إن الأوروبيين قد استعانوا بها، وفتحت أمامهم المجال؛ لكشف الغامض من أسرار اللغات جميعًا.

وجهود ابن جني اللغوية كثيرة ومتنوعة، ولها قيمتها العلمية البارزة في كثير من مجالات البحث في اللغة بعامة، والعربية بخاصة.

ففي مجال البحث في نشأة اللغة الإنسانية له دراسته الجليلة، وحديثه عن مذاهب العلماء فيها.

وأهم هذه المذاهب : المذهب التوقيفي القائل بأن اللغة من عند الله، والمذهب الوضعي القائل بأن الإنسان هو الذي وضع ألفاظ اللغة التي يتكلم بها في شتى بقاع الأرض، والمذهب الاجتماعي الذي يربط بين اللغة والمجتمع؛ فيجعل نشأتها مقترنة بوجود أفراد البشر، متعاونين يشقون طريقهم في الحياة؛ بممارسة الأعمال الشاقة التي قد يحتاجون إليها. ومذهب الغريزة الكلامية الذي يصور أن الإنسان – كما زُوِّد بغرائز طبيعية كثيرة كالتعبير الطبيعي عن الانفعالات- زُوِّد بغريزة خاصة تُعرف باسم "الغريزة الكلامية"، ساعدت على نشأة اللغة الأولى، ثم – بعد أن لم يعد الإنسان في حاجة إليها- أخذت تنقرض

وتتلاشى، وحلّ مكانها الكلام الصناعي. والمذهب الطبيعي الذي يفسر نشأة اللغة بأنها نتاج طبيعي صدر عن انفعالات الإنسان نفسه، أو المؤثرات الخارجية عليه، أو بمحاكاة أصوات الحيوان والأشياء الموجودة في الكون، وقد اتخذت تلك الاتجاهات صورة نظريات مستقلة في الحديث عن مبدأ اللغة، ورأى العالم السويسري "جسبرسن"، الذي حاول أن يجعل اللغة نشأت مع الإنسان الأول منذ بدء حياته الأرضية، واختلاطه بغيره على صورة لعب وغناء.

والسائد لدى علماء اللغة أن صدورها عن محاكاة الأصوات هي النظرية المقبولة من الوجهة العلمية والاجتماعية؛ فهي تتفق مع سنة النشوء والارتقاء، وحال الطفل، والأمم البدائية.

وقد كتب ابن جني فصلاً خاصًا في كتابه "الخصائص"، أوضح فيه الآراء التي ظهرت حتى عصره في نشأة اللغة، وساق بعض الأدلة التي دعت أرباب تلك الآراء إلى الأخذ بها، وقد ظهر لابن جني حيرته في تأمله لأسرار اللغة العربية العجيبة، وهل يليق به أن ينسبها إلى المخلوق أو إلى الخالق؟

ولا بدع في تردد ابن جني، فعلماءُ اللغة – قديمًا وحديثًا– مترددون في هذا المبحث؛ لأنه أمر غيبي "ميتافيزيقي"، ومع ذلك فابن جني – كبعض أسلافه من العرب– يساير العلماء العصريين في ترجيح أن لغة الإنسان نشأت عن طريق المحاكاة للكائنات التي تحيط به.

يقول : "وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات من ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبل"، وهذا الرأي نابع من طبيعة اللغة العربية التي ترجع جمهرة غير قليلة من ألفاظها إلى المحاكاة، ويترتب على ذلك ما يفهم من نظرات المذاهب المختلفة إلى الأجناس الثلاثة: الأسماء،

والأفعال، والحروف، وأيها أسبق من الآخر؟ هل وقعت دفعة واحدة في اللغة، أو أنها تدرجت تبعًا لسنة النشوء والارتقاء، بتقدم الأسماء، ثم الأفعال، ثم الحروف؟ وأن الحاضر هو أول الأفعال، ثم الماضي، ثم المستقبل؟

والتدرج والتطور في النشأة اللغوية هو ما يثبته الدرس اللغوي الحديث؛ بناء على ما رآه بعض العلماء من أن اللغات بدأت قليلة التنوع، ثم زيد فيها شيئًا فشيئًا؛ حتى اكتملت.

وقد ألقى ابن جنى الضوء الكافي على انقسام اللغة وتوحدها، والعوامل المؤثرة في ذلك، فهو – لاهتمامه باللغة العربية، ولهجاتها– يعقد لها أبوابًا متعددة في خصائصه، كما أنه يعرض لها في كتابه "المحتسب"، ويدافع بها عما نُسب لبعض القراءات من شذوذ، وقبل هذا كله قدم ابن جني للموضوع بدراسته لأصول اللغة، التي يجب على كل باحث أن يبدأ بها عند تناوله موضوعًا لغويًا، أو لغة معينة، فقدم في مستهل خصائصه فصلاً خاصًا للكلام والقول، والفرق بينهما، وفصلاً خاصًا لبيان معنى اللغة واشتقاقها، وكل ذلك يفيد دارس اللغات واللهجات.

وللكلام علاقة وثيقة باللغة، وفي الدراسات الصوتية الحديثة يستخدم الكلام طريقًا لمعرفة الاتجاهات الصوتية في لغة ما أو لهجة ما، وتلك من أبرز الوسائل الناجحة لمعرفة حقائق صوتية لم يهتدِ الباحثون إليها قبل توافر الأجهزة الحديثة.

وابن جني في تناوله للكلام والقول لا يأتي بمتكلمين ليسجل أقوالهم، ويطبق عليها، وإنما يبحث المسألة من وجهة نظر أخرى، هي بيان معنى كل منهما، وهل له صلة باللغة أو لا؟ ولا ريب أنه مصيب في بحثه؛ إذ الكلمات – كما نعرف– هي مكونات اللغة وأساسها، وقد عرض ابن جني للكلام والقول– على طريقة الاشتقاق الكبير– محللاً معنييهما وتصرفاتهما، والفرق بينهما،

ومعللاً كلَّ ذلك بما يعنّ له من أسباب، ومزج بين طريقَيْ النحويين واللغويين في ذلك.

فذكر أن الكلام هو كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه- وهو الذي يسميه النحويون: الجملَ- وهو جنس للجمل المركبة، وأقام على ذلك الأدلة على الطريقة النحوية، ثم قرن ذلك ببحث مادة (ك ل م) وتقلباتها على الطريقة اللغوية: طريقة الاشتقاق الكبير الذي يعد هو مبتكره، فبين أنها حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة، والمستعمل منها أصول خمسة، وأهملت منه (ل م ك)، فلم تأتِ في ثبت.

أما القول فعرّفه بأنه كل لفظ مذل به اللسان تامًّا أو ناقصًا، ثم إنه يستعمل مجازًا بمعنى الاعتقاد والرأي، فيقال: هذا قول فلان، أي: رأيه ومعتقده، وتدور مادة (ق و ل) حول الخفوف والحركة، وتصرفاتها الستة كلها مستعملة، ومن خلال ذلك تتضح فروق وصلات بين الكلام والقول، واستعمال كل منهما.

والمعروف من تاريخ كلمة "اللغة" أنها لم تَعرف طريقها إلى الظهور بين مفردات العربية إلا بعد انتهاء القرن الثاني الهجري، وأنها لم ترد في الأدب العربي قبل القرن الثامن الهجري، فقد جاءت لأول مرة في شعر لصفي الدين الحلي المُتوفي سنة خمسين وسبعمائة، وأن القرآن الكريم يعبر عن "اللغة" بكلمة "اللسان"، ولها نظائر في اللغات السامية والأوروبية.

وعرّف ابن جني اللغة بقوله: أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، وذكر اشتقاقها وتصريفها، وسبق بهذا التعريف علماءَ الاجتماع، وتعريف ابن جني أدق وأخصر.

أما اللهجة فهي: قيود صوتية تلحظ عند أداء الألفاظ في بيئة معينة، وتنشأ من تفرع اللغة الواحدة إلى عدة لهجات لها خصائصُ مختلفة، ويمكن

التعرف على اللهجة بالوقوف على هذه السمات والخصائص التي توجد في منطقة، ولا توجد في المنطقة الأخرى، ويمكن لها أن تصبح لغة إذا وفت بحاجة المتكلمين بها، ولذلك التفرع عوامل متعددة، منها: اختلاف البيئات الجغرافية، وتنوع الظروف الاجتماعية، والاتصال البشري وآثاره.

ولله در ابن جني ؛ فقد بنى دراسته للهجات العربية على هذه الأسس العلمية التي لاحظها المُحْدَثون، وله شخصيته في تحديد هذه العوامل المكوّنة للهجات.

وفي العامل الاجتماعي والثقافي والجغرافي بيّن ابن جني أن العرب لم يعيشوا في عزلة عن غيرهم، أو بيْن بعضهم وبعض للحاجات الاجتماعية الداعية، وأوضح اختلاط القبائل وأثره في اللهجات، فإذا التقى العربي بغيره حدث واحد من ثلاثة:

تمسكه بلهجته الأصلية - انتقال لسانه إلى اللغة الجديدة - اجتماع لهجته مع لهجة غيره.

ويتفرع عن ذلك تداخل اللهجات في اللغة الواحدة، فاللهجات تتلاقى، ويأتلف منها ما يأتلف ويختلف منها ما يختلف، ولذلك صور في التداخل الحادث في الأبنية والحادث في الألفاظ، ولم يكن هذا من الأمور المنظور إليها بالسطحية في بحثه، بل كانت له فلسفته المؤيدة بالتطبيق اللهجي.

فقد ذكر لهجات مختلفة في نطق الصوائت والصوامت، وتأثرها بعضها ببعض، فلهجة تستعمل صائتًا بعينه على حين تستعمل أخرى غيره، مثل قراءة "يوم تِبيضُّ وجوه وتِسودُّ وجوه" بكسر حرف المضارعة، أو تحذفه نهائيًا، مثل قراءة "كطي السجْل للكتب" بسكون الجيم، وهكذا بالنسبة للصوامت، فقبيلة

تقول: "جدث" وأخرى : "جدف" – للقبر – وقبيلة تفضل النطق السريع للأصوات؛ بما يؤدي إلى تداخلها في الإدغام، وأخرى تميل إلى التأني في النطق، وذلك يتطلب فصل الأصوات بعضها عن بعض؛ بحيث يأخذ كل منها حقَّه في المجهود العضلي، وهذا تبعًا للبيئات التي يحيا بها هؤلاء وهؤلاء، طبيعيًّا واجتماعيًّا.

وابن جني لم يكن نحويًّا عاديًّا، يجمع ثم يكتب بطريقة تقليدية، بل اعتمد على مصادر موثوق بها في الوصول إلى هدفه، وهو مشافهة الأعراب، وهو يأتي باللهجات؛ ليبين خصائص العربية.

وفي متن اللغة مظاهر كثيرة؛ لذلك تكلم على أهمها، وهي: الإبدال بوجه عام، وتحقق اللهجات في صوره المختلفة، وتأثر الأصوات بعضها ببعض، وله أنواع منها: الإدغام، والتقريب بما يحقق الانسجام الصوتي، والمخالفة والإمالة، ثم السكون والحركة في الصوامت الحلقية.

ومن خلال القراءات القرآنية والنصوص العربية التي عرض لها ابن جني بالتحليل والبحث، ومقارنة ما وصل إليه بما قال به المحدثون– يتبين أن دراسته توافق أحدث الدراسات اللهجية، وبمراجعة ما ذكره وصلته بالبيئات اللهجية تتأكد صحة ما توصل إليه من نتائج، في ظهور لهجة معينة عند قوم دون آخرين.

وفي بعض الأحيان لا ينسب ابن جني اللهجات إلى أصحابها، أو ينسبها إلى بعضهم دون بعض؛ ولعل ذلك لأنها – وإن اعتد بها – قد صُهِرت في بوتقة واحدة في اللغة المشتركة، فهو يرى "قوة تداخل هذه اللغة وتلاحمها، واتصال أجزائها، وتلاحقها، وتناسب أوضاعها، وأنها لم تقتعث اقتعاثاً، و لا هيلت هيلاً، وأن واضعها عني بها، وأحسن جوارها، وأمد بالإصابة والأصالة فيها".

ولابن جني بحوث في العربية المشتركة التي نشأت نتيجة الصراع بين اللهجات، وتغلُّب القرشية عليها، فقد عالج ظواهر القياس اللغوي بما يناسب الحفاظ على سلامة العربية من العبث، وما يعطيها حيوية وكثرة نماء.

والقياس هو : "حمل غير المنقول عن العرب على المنقول عنهم، إذا كان غير المنقول في معناه في معنى المنقول عنهم"، أو هو : "العملية التي بها تتكون صيغة أو كلمة أو تركيب تبعًا لأنموذج معروف".

وينبني القياس على الوارد المسموع عن العرب، وقد تحرى علماء العربية في الأخذ عن القبائل العربية الفصيحة التي لم تختلط بالأجانب في عصور الاحتجاج المحددة بقرار مجمع اللغة العربية، وهو "أن العرب الذين يوثق بعربيتهم، و يستشهد بكلامهم هم عرب الأمصار إلى نهاية القرن الثاني الهجري، وأهل البادية من جزيرة العرب إلى آخر القرن الرابع".

وكان ابن جني من أولئك العلماء الذين تحروا الدقة في أخذ اللغة عن الفصحاء من العرب، وكان يُجري الاختبار لمعرفة فصاحة الأعرابي الذي يريد الأخذ عنه، وقد كانت الفصاحة باقية في البادية حتى عصره مع احتمال تسرُّب اللحن إلى بعض أهل البادية؛ ممن يختلطون بأهل الحاضرة، وقصة الأعرابي الذي طرأ عليه، وأنشده؛ فوثق بفصاحته أولاً، ثم رده أخيرًا؛ لما ثبت من عدم فصاحته- قصةٌ معروفة في كتابه "الخصائص".

ولم تؤخذ اللغة عن المختلطين بالأعاجم؛ فلم تؤخذ عن القبائل المتأثرة بالفرس والروم، ولا يصح الأخذ عن العرب بعد عصور الاحتجاج كما يريد بعض المحدثين، وقد كان القدماء يأخذون اللغة عن الجاهليين والمخضرمين - باتفاق- واختلفوا في الأخذ عن المتقدمين من شعراء صدر الإسلام كجرير والفرزدق، أما الطبقة الرابعة وهم المولدون "الذين يلون عصر جرير والفرزدق إلى يومنا هذا"، فالصحيح – عندهم – أنه لا يستشهد بكلامهم إطلاقًا.

ولا يوافق ابنُ جني ابنَ قتيبة في الاحتجاج بكلام المولدين على القواعد اللغوية، وإنما يأخذ عنهم المعاني فقط، لا رواية اللغة وقواعدها.

وقد نقد المحدثون هذا الاتجاه، وعدوه معوقًا لتقدم اللغة، ودعـوا إلـى الأخذ بكلام المولدين، ولكن يبدو أن توسيع نطاق مَن يؤخذ عـنهم علـى هـذه الصورة يُخلّ بالطابع الأصيل للغة؛ لتأثر المولدين بـالمؤثرات الغريبـة عنهـا، وكيف يحتج بكلامهم وقد وقعوا في أخطاء كثيرة لا يستطيع أحد تخريجها علـى وجه مقبول؟

وابن جني يسير – في استنباط قواعد اللغة– على الدراسة الوصفية التي تعتمد على النصوص، بحيث يقاس على الكثير الغالب مما ورد في اللغة، ويعـد ما عداه شاذًا أو مؤولاً.

ويعد ابن جني أحد أعضاء مدرسة القياس المشهورة، التي يبـرز مـن أعضائها وأعلامها الخليل وسيبويه، وأبو عثمان المازني، وأبو على الفارسـي، فقد اتفقوا جميعًا على أن "ما قِيس على كلام العرب فهو من كلامهم"، وقد ناقش ابن جني موضوع القياس على كلام العرب في أبواب متعددة أثبت من خلالهـا اعتماده مبدأ السماع عند القياس؛ فلا يوضع قانون إلا بعد النظـر فـي المـادة اللغوية واستقراء الظواهر، واعتمد مبدأ الكثرة – كالبصريين – في حديثه عـن الظواهر اللغوية المطرد منها والشاذ، وقسمها أربعة أقسام، استوحاها من أستاذه الفارسي، ومن قبله أبي بكر بن السراج، الذي أشار الفارسي إلى أنه أخذها عنه، ولكن ابن جني يمتاز بعمق البحث، والاستقصاء والدراسـة الواعيـة التحليليـة والفلسفية؛ مما جعل الموضوع كأنه جديد؛ لم يطرقه سواه.

وما اعتُرِض به على ابن جني ساقط عنه، كدعوة بعض المحدثين إلـى إلغاء أقسام القياس عدا القسم الأول؛ إذ قد ثبتت صحة ما ذهب إليه ابـن جنـي، وليس في هذه الأقسام غموض أو تناقض– كما ادعى بعض المحـدثين– فالقلـة

والكثرة في شواهد اللغة التي يقاس عليها محددة واضحة بأنها نسبية، فالمثال الواحد كثير إذا لم يوجد غيره، والستة كثيرة بالنسبة للثلاثة، وهكذا .

فابن جني أرسى دعائم القياس، ووطّد أركانه على نحوٍ لا يزال البحث الحديث يعترف له بقوته وصلاحيته للدراسة اللغوية بوصفها ظاهرة اجتماعية متطورة.

وبيّن ابن جني أن لغة العرب – بكلماتها واستعمالاتها المختلفة- قائمة على أصول ومبادئ، فأبنيتها اللغوية لها فلسفتها الخاصة، التي لم تتوافر لأية لغة من لغات العالم، وكل أصل لغوي مُعلّل بعلة، لا أنه سيق اعتباطًا، أو بلا أهداف يرمي إليها.

تحدث ابن جني عن بناء العربية اللغوي وفلسفته المبنية على الخفة الناشئة عن عدة الحروف المكون منها البناء، وحركاتها وسكناتها، وتطور المعلات منها.

فقد تناول الأبنية اللغوية بالبحث والتحليل، وحاول – ما أمكنته المحاولة- أن يبرهن على أن كلام اللغويين في هذا المجال مستمد من طبيعة اللغة العربية، ومعرفة أهلها لأسرارها، وقد بنى حديث العربية على مبدأ الاستثقال والاستخفاف، وكشف عن ابتكاراته الفلسفية؛ بما يؤكد شخصيته، وعبقريته، واستقلاله بالبحث.

فبالنسبة لائتلاف الحروف ذكر أنها على قسمين: خفيف، وثقيل، وكل منهما على درجة متفاوتة، ولكلٍّ مخرج معين، وهي تُكوّن لِبنات الألفاظ وأحسن التأليف ما بُوعد فيه بين الحروف، فإن كان ولا بد من التأليف من الحروف المتقاربة فيقدم الأقوى على الأضعف؛ ولذلك قال: إن حروف أقصى اللسان لا تتجاور ألبتة؛ فلا يقال : قج ولا جق، وحروف الحلق أقل ائتلافًا

أيضًا، فإذا اجتمع منها اثنان فُصِل بينهما، مثل: هدأت -خبأت- عبء، ويُجمع بينهما إذا قُدّم الأقوى، مثل: أهل، وأحد؛ وذلك لملحظ التخفيف.

وعلى أساسه أوضح سر إهمال ما أُهْمِل، واستعمال ما استعمل، والبناء العربي يسير مع هذه الطبيعة لا يفارقها، فإذا وجد الخفة في الحروف المتباعدة اتبعها، وإذا لم يتحقق ذلك لجأ إلى تقريب الحروف ما دام مُوصِّلاً إليها، ومتمشيًا مع المبدأ المذكور، فمع استحسان البعيد يتركونه، ويقربون في مثل: سويق، واصطبر؛ حيث لا يمكن تجاوب السين مع القاف، ولا ائتلاف الصاد مع التاء.

وكذلك كرهت العربية توالي الأمثال للثقل الكامن فيها؛ فلجأت إلى تخفيفه بوجوه متعددة، منها : إبدال أحد الأمثال ياء، مثل: أمليت، وتظنيت، فالأصل هو التصحيح، ثم نقل إلى الإعلال، ولا عبرة لمن يعكس الأمر؛ فيدعي أن الأصل هو المعل، ثم نُقل إلى التصحيح في مرحلة متأخرة، فليس معه ما يؤيده من الواقع أو التاريخ اللغوي.

وبالنسبة لسكون الحروف وحركتها ذكر ابن جني أن العربية – أيضًا– حاولت أن تنظر إلى حركات الحروف وسكونها، فوضعت الحركات المناسبة في أماكنها المناسبة، وسمحت للسكون بأن يكون في الموضع الذي لا يتنافى معه الانسياب النطقي، والذلاقة اللسانية، وقد عرف البناء العربي التناسب الحركي؛ بحيث رفض منه ما لم تتناسق الحركات فيه، كما عرفنا عن رفض "فُعِل" – بضم الفاء وكسر العين، و"فِعُل" بكسر الفاء وضم العين– استثقالاً للخروج من الضمة إلى الكسرة، وعكسه.

كما تحدث ابن جني عن الحركة والسكون في البناء العربي، ومتى يكون كل منهما لازمًا أو غير لازم.

وبالنسبة لعدة الحروف ذهب ابن جني –كغيره– إلى أن خفة البناء العربي، وكثرة استعماله تتجلى فيما تألَّف من ثلاثة أحرف؛ لتمكن اللسان من نطقه، فحرف يبتدأ به، وحرف يحشى به، وحرف يوقف عليه؛ ولذلك أجمع علماء العربية على أنه يحتل المكان الأول بين الكلم العربي، وبنى عليه اللغويون بحوثهم وقواميسهم.

ويلي الثلاثي في الكثرة الرباعي ، ثم الخماسي فما فوقه، ونظرًا لمبدأ التخفيف أهمِل الكثير من أبنية الرباعي، وما فوقه، ولم يأتِ في واقع اللغة إلا القليل، على أن الثلاثي– على خفته –لم يستعمل كله، بل أهمل بعض أوزانه.

وبالنسبة للمعلات وتطورها ذكر ابن جني أن العربية تلجأ إلى الإعلال لتصل إلى هدفها المقصود، فما صحح فلخفته، وما أعل فلخفته –أيضًا– فالأصول الأولى استغنى عنها لثقلها.

فاللغة العربية لغة هُذّبت مبانيها أحسنَ تهذيب؛ فجاءت خفيفة على اللسان، تحمل ألفاظها وتراكيبها عنوان السلاسة، والذوق العربي البليغ، وهذه ميزة تنفرد بها عما عداها من اللغات.

وإن فلسفة الأبنية تعطينا صورة صادقة عن عقلية ابن جني الراجحة وتفكيره البعيد، وتحليله اللغوي؛ بما يدل على أصالة علمية نافذة، وجهد لا يتوافر لغيره من فلاسفة اللغات، والباحثين في صيغها وتطورها.

وإذا كان الفضل في نشأة الدارسة الصوتية يعود إلى الخليل بن أحمد وسيبويه فإن ابن جني خاصة أثار كوامن الدراسات الصوتية؛ حين ربط بينها وبين الموسيقى والنغم؛ بما أوضح اهتمامه بالأبحاث التجريبية التي تتفق وأحدث الطرق العلمية، فقد شبه الحلق بالناي (المزمار)، وشبه مدارج الحروف ومخارجها بفتحاته التي توضع عليها الأصابع ،" فإذا وضع الزامر أنامله على

خروق الناي المنسوقة، وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات، وسُمع لكل خرق منها صوتٌ لا يُشبه صاحبه، فكذلك إذا قُطع الصوت في الحلق والفم باعتماد على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة".

ويربط ابن جني بين علم الأصوات وعلم الموسيقى، فيقول: "إن علم الأصوات والحروف له تعلُّق ومشاركة للموسيقى؛ لما فيه من صنعة الأصوات والنغم".

وتعريفه للحرف والصوت اللغويَّيْنِ لا يقل شأنًا عما ذهب إليه المحدثون من علماء الأصوات، فقد قال عن الصوت: إنه "عرض يخرج مع النفس مستطيلاً حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته؛ فيسمى المقطع أينما عرض له حرفًا".

وقال عن الحرف: إنه "حد منقطع الصوت وغايته، وطرفه". فنستطيع أن نتبين من ذلك الفرق الذي تصوره ابن جني بين الصوت والحرف، فالصوت نشاط عضوي حركي تنشأ عنه قيم صوتية، والحرف هو: تلك الوحدة اللغوية المعينة كالباء أو النون مثلاً، التي توجد عند موقع معين يقف عنده الصوت، يُطلَق عليه اسم المخرج.

كما وضح من كلامه أنه عرف نظرية " الفونيم" التي تحدث عنها دانيال جونز العالم اللغوي الإنجليزي، وغيره من لغويي العصر الحديث، حين قال: "وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها ... ألا ترى أنك تبتدئ الصوت من أقصى حلقك، ثم تبلغ به أي المقاطع شئت، فتجد له جرسًا ما، فإن انتقلت عنه راجعًا منه، أو متجاوزًا له، ثم قطعت- أحسست عند ذلك صدى غير الصدى الأول، وذلك نحو الكاف، فإنك إذا قطعت بها سمعت هنا صدى ما، فإن رجعت إلى القاف سمعت غيرها، وإن جزت إلى الجيم سمعت غير ذَيْنِك الأولين".

فإذا قرنا هذا بتشبيهه الحلق بالناي، واختلاف الأصوات؛ تبعًا لوضع الأنامل على خروقه- عرفنا أن ابن جني كان يعرف الفروق الدقيقة بين الصوت في حقيقته التي هي العملية الحركية ذات الأثر السمعي، وبين الحرف بوصفه وحدة تجريدية، قد تكون ذات صوت واحد، أو عدة أصوات، وهذا ما يطلق عليه اسم "الفونيم".

وقد فرّق ابن جني بين أصوات اللين "واي" – الواو والألف والياء- من حيث كيفية النطق بها، ومواقعها بين الحلق واللسان والشفتين، وتلك نظرة دقيقة نلمحها عند تأملنا لأصوات اللين المعيارية، ومقاييس أصوات اللين التي اتفق عليها المحدثون من علماء الأصوات، واهتم بها الأستاذ دانيال جونز.

فقد قال ابن جني: "إن الصوت الذي يجري في الألف مخالف للصوت الذي يجري في الياء والولو، والصوت الذي يجري في الياء مخالف للصوت الذي يجري في الألف والولو، والعلة في ذلك أنك تجد الفم والحلق في ثلاث الأحوال مختلف الأشكال، أما الألف فتجد الحلق والفم معها منفتحين غير معترضين على الصوت بضغط أو حصر، وأما الياء فتجد معها الأضراس سفلاً وعلوًا، قد اكتنفت جنبتي اللسان، وضغطته وتَفَاجَّ الحنك عن ظهر اللسان؛ فجرى الصوت متصعدا هناك؛ فلأجل تلك الفجوة ما استطال، وأما الواو فتنضم لها معظم الشفتين، وتدع بينهما بعض الانفراج؛ ليخرج منه النفس، ويتصل الصوت، فلما اختلفت أشكال الحلق والفم والشفتين مع هذه الأحرف الثلاثة اختلف الصدى المنبعث من الصدر، وذلك قولك في الألف: أا ، وفي الياء : إي ، وفي الواو : أو".

وفي اعتقادي أن هذا الوصف دقيق، يدل على إرهاف حس وسلامة طبع، بحيث حدد الشكل العام لمخارج تلك الأصوات، من اللسان والحلق والفم

والشفة، وأوضاع تلك الأعضاء حال النطق بها، بما فتح الطريق أمام المحدثين ليحددوا مخارجها بالآلات الحديثة، بارتفاع أو انخفاض مقدم اللسان، أو مؤخره في الفم، وتقسيمهم لها إلى أصوات لين ضيقة ومتسعة، وأمامية وخلفية، وغيرها، فضلاً عن نص علمائنا على أن الحركات أبعاض حروف المد.

وفي محل الحركة من الحرف كان ابن جني على درجة كبيرة من الدقة حين رجّح أن تكون الحركة بعد الحرف، وانتزع لها الأدلة، وفنّد غيرها، واتفق بذلك مع ما يثبته الدرس الصوتي الحديث، وكان له رأيه مع غيره من القدماء في الأصوات الساكنة مخارجها، وصفاتها، ولم يكن وصفه أقل شأنًا من الوصف الحديث، وقد كانت دقة الملاحظة، وإرهاف الحس من العوامل التي ساعدت على انتهاج الطريق السوي في دراسته الصوتية؛ بما بهر المحدثين، وأثار كوامن إعجابهم ودهشتهم.

وفي مجال التبادل بين الأصوات كانت لابن جني جولات واسعة في الألفاظ التي اختلفت في بعض الحروف المتقاربة أو المتباعدة، فإذ تماثلت أو تقاربت الحروف المختلفة في المخارج والصفات كان له نظريته في الحكم بالإبدال أو باختلاف اللهجات، بحسب مقياس التصرف والاستعمال.

فالكلمتان المتحدتان في جميع الحروف ما عدا حرفًا واحدًا تكونان:

١- من الإبدال: إذا أمكن الحكم بأصالة إحدى الكلمتين، وفرعية الأخرى، وذلك إذا كانت إحداهما أكثر تصرفًا، أو استعمالاً من صاحبتها، وهذا يحدث عند قبيلة واحدة، أو عند العرب جميعًا.

٢- من اختلاف اللهجات: إذا لم يمكن الحكم بأصالة إحدى الكلمتين، وفرعية الأخرى، وذلك إذا تساويتا تصرفًا واستعمالاً، ويكون عند قبائل متعددة، وهذا الرأي يعد سليمًا إلى حد كبير في ضوء

معطيات الدرس اللغوي الحديث، الذي ينبني على أسس وعوامل أهمها:

أ – اختلاف اللهجات.

ب- التطور الصوتي، وله أسباب كثيرة من أشهرها: اختلاف أعضاء النطق، والمكان والزمان، والحياة الاجتماعية – بما تمثله من عزلة، أو اختلاط، وثقافة، وحضارة، وحالة نفسية، وغير ذلك من مظاهر اجتماعية، قومية ، ودينية، وعصبية، وغيرها.

ج – عوامل لغوية: وهي كثيرة منها: تفاعل الأصوات، الاشتقاق، تغيير المعنى، التصحيف والتحريف، صنع الألفاظ واختلاقها.

وبتطبيق هذه الأسباب ونحوها على الثروة اللغوية من الألفاظ التي عرض ابن جني لها في كل باب من أبواب حروف المعجم، في كتابه "سر الصناعة "- يمكن إخراج كثير من هذه الألفاظ من دائرة الإبدال، ويتبين أن لابن جني باعَه الطويل في ذلك.

ولابن جني كذلك حديث جيد عن الدلالة ونشأتها – بوجه عام- ونشأة علم الدلالة اللغوي وقضية اللفظ والمعنى؛ بما يثبت تقدّم الدراسة العربية في هذا الشأن قبل أن يطرقها علماء اللغة الأوربيون، من أمثال بريال الفرنسي، وكروس الإيطالي، وفونت الألماني.

فلابن جني – وغيره من علمائنا – فضل كبير في ذلك، ودافع ابن جني عن عناية العرب بالألفاظ والمعاني؛ بما يدحض فرية أن لغة العرب تهتم بالألفاظ أكثر من المعاني، وذلك يجري على لسان أجانب وعرب، ففي العربية من طبيعة أبنيتها وصياغة أمثلتها، وذوق أدبها الفني الرفيع- ما يشهد لها

بتفوقها في هذا الميدان، واهتمامها باللفظ والمعنى على سواء، بل المعنى هو المخدوم واللفظ خادم له، كما قرر ابن جني، وشهد به كثير من الباحثين قديمًا وحديثًا.

ولابن جني جهد كبير في قضية الاشتقاق، ومزاياه في العربية، فكلام العرب بعضه أصل وبعضه مشتق، وتعددت آراء الباحثين في أصل المشتقات: هل هو المصدر - كما هو رأي البصريين - أو الفعل- كما هو رأي الكوفيين- أو هو المادة الخام التي تتألف من ثلاثة أحرف- كما هو رأي أصحاب المعاجم وبعض المحدثين، أو هو المحسوس - كما هو رأي اللغويين؟ ولابن جني إسهامه في هذه الآراء التي تتكامل فيما بينها؛ لتتعدد مصادر المشتقات وأصولها، وما يمكن أن تجري عليه.

ولابن جني نظرات واعية حددت المفاهيم المختلفة لأنواعه: الصغير، والكبير، والأكبر، والكبار.

ومنذ بدء البحث اللغوي والعلماء يتناولون موضوع الاشتقاق ويؤلفون فيه، وعلى رأسهم جميعًا يقف اللغوي العبقري ابن جني وأستاذه أبو علي الفارسي؛ لابتداعهما فكرة الاشتقاق الكبير والأكبر، وأولاه ابن جني عناية فائقة؛ حتى لقد بنى عليه مسائله التي تتناولها كتبه، وأهمها الخصائص وسر الصناعة.

ولا تكاد تثبت النقود التي وجهت إليه في الاشتقاق الكبير، فيرى بعض الناقدين له أنه أحرج اللغة التي يعشقها، ويرى بعضهم أن الأمثلة التي ساقها ابن جني للاشتقاق الكبير قليلة؛ لأن مواد اللغة كثيرة تصل في جمهرة اللغة لابن دريد إلى أربعين ألفًا، وفي معجم لسان العرب إلى ثمانين ألفًا.

ولكن هذه الآراء مردود عليها، والمواد التي يتحقق فيها الاشتقاق الكبير كثيرة، تتبع خطى ابن جني فيها بعض الباحثين قديمًا وحديثًا؛ بما يؤكد تحقق

هذه الظاهرة في الكلام العربي؛ بحيث تعد طبيعية لا تكلف فيها، وتتحقق به إفادة كبيرة للغة.

واستطاع ابن جني أن يثبت رسوخ قدمه في ابتكار قواعد الاشتقاق الأكبر، وأن يبين طرائقه في اللغة، وأن يثبت - على إثرها - القيمة التعبيرية للحرف العربي، وبذلك فتح المجال للمحدثين؛ لاكتشاف أسرار العربية في دوران المادة حول معنى واحد، ومدى ثنائية اللغة وثلاثيتها منذ نشوئها، ومناسبة حروفها لمعانيها، وهذه مزايا لها أثرها، وخطرها اللغوي.

وقد أدرك المحدثون- بناء على ذلك- أنه "ليس في الذهن كلمة واحدة منعزلة، فالذهن يميل دائمًا في جميع اللغات إلى لكتشاف عُـرًى جديدة تجمع بينها، والكلمات تتشبث دائمًا بعائلة لغوية، بواسطة دوال المعنى، أو دوال النسبة التي تميزها، أو بواسطة الأصوات اللغوية التي تتركب منها، لا أكثر من ذلك، فنحن نشعر بأن الكلمات "إعطاء - عطية - عطاء- معطِ- مُعْطَى ... إلخ عائلة قائمة بذاتها، تتميز بعنصر مشترك هو ع ط ى (كذا)، مهما تتنوع معاني المشتقات (اللغة ٢٣٢)، كما أدركوا أنها من مميزات لغة العرب، ولا تتمتع اللغات الأخرى بمثلها، ففي الفرنسية كلمات مثل:canine و cnien لا يوجد ما يدل على أنهما من أصل واحد، وكذا chef و capitaine لهما أصل معنوي واحد، ولا يشتركان في مادة واحدة، مع أنهما يرجعان إلى كلمة caput اللاتينية، ومعناها "الرأس".

وكلمتا "أخ" و"أخت" ترجعان إلى مادة "أخو" في العربية، على حين نجدهما مختلفتين لا رابط بينهما في اللغات الأجنبية، فهما في الفرنسية frere وsoeur ، وفي الإنجليزية: brother وsister، ومثل هذا كثير.

وابن جني يرى أن أكثر الكلمات الثلاثية والرباعية والخماسية إن لم تكن كلها أصلها ثنائية، ثم زيدت من أصل الوضع حرفًا أو حرفين أو ثلاثة؛ حتى صارت ثلاثية ورباعية وخماسية، وصارت الزيادات من أصول الكلمات.

وكان ابن جني عبقريًا حقًا؛ فقد أرسى قواعدَ تكشف عن خصائص اللغة، كما أرادها العرب في أنبل أغراضها وأبدع مزاياها.

وفي المجاز يسبق ابن جني سائر اللغويين في تحديد مصطلحَيْ الحقيقة والمجاز، ومتى يطلق كل منهما في مجال اللغة، وقد أفاد منه الإمام عبد القاهر الجرجاني، ونسج على منواله، ولابن جني حديث بلاغي دقيق في أمارات المجاز، وكيف يدرك اللفظ المجازي من الحقيقي، ووسائل ذلك، وما يفيده المجاز من دلالة لغوية قوية، وكان ابن جني على صواب كبير في معناه وبحثه، ووافق بذلك أئمة البيان، وعُدّ من أعلامهم دون منازع، ولا عبرة بنقد نصر الله بن الأثير؛ لأن هذا النقد مُفنّد لا يثبت أمام البحث والنظر العلمي.

أما قول ابن جني الذي يستحق النظر فهو قوله : "إن أكثر اللغة مجاز" فهذا– في حقيقة الأمر– رأي مبالغ فيه من وجهة نظر ابن جني؛ حين يجعل مثل "قام زيد" من المجاز؛ لأنه لم يقم القيام كله، ونحن لا ننكر شيوع المجاز في أساليب العربية، لكن إذا اقتضى المقام ذلك بوجود العلاقة والقرينة دون تكلف.

ويختلف الكوفيون والبصريون في قضية نيابة بعض الحروف عن بعض، فالكوفيون يعتمدون على أن الحروف ينوب بعضها عن بعض قياسًا، أما البصريون فيجعلون للحرف الواحد معنى واحدًا، ويمكن أن يستعمل في غيره لعلاقة على سبيل المجاز، ومنه التضمين أو نيابة بعض الحروف عن بعض شذوذًا– عندما يتعذر المجاز– وعلى هذا الرأي ابن جني، بل يعد على رأسهم جميعًا؛ لبيانه أرجاء هذا الموضوع، وكشفه عن أسراره، وإيضاحه لطفه

وشرفه، وأما البيانيون فلهم اتجاه آخر في جعل المعنى المتضمن تابعًا مدلولاً عليه بلفظ محذوف.

وللمحدثين من علماء اللغة آراء في التضمين، ويُعد ابن جني معتمد هذه الآراء جميعًا، وصاحب السبق عليها، وبحثه فيه دقيق، وعلى جانب كبير من الصواب، يثبت أن التضمين أسلوب تعرفه العربية، وهو قياسي فيها، وحديثه عن التضمين يؤكد أنه وصل إلى ما اطمأنّ إليه الباحثون المحدثون، وقرار مجمع اللغة العربية بقياسيته يشهد بذلك.

ويعترف ابن جني بوقوع الارتجال في اللغة، مؤيدًا رأيه ببعض الكلمات التي جاءت عن ابن أحمر الباهلي، وبما روي عن رؤبة وأبيه من أنهم كانا يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها، ولا سبقا إليها، وفي كُتب النحاة ما يرشدنا إلى اعترافهم- أيضًا- بالارتجال في أثناء حديثهم عن العَلَم، وتقسيمه مما هو منه منقول ومرتجل.

ولكن ابن جني هو الذي عالج هذا الموضوع بطريقة تفصيلية، وهو يقصد به أحد أمرين:

١- اختراع ألفاظ من العدم ، كتلك التي حدثت عن رؤبة وأبيه.

٢- الاشتقاق من مواد معروفة على طريقة مخالفة للقواعد القياسية.

وهذا الاختلاق والاختراع – كما كان في الألفاظ وبنية الكلمات- كان في المعاني، بحيث كان رؤبة – مثلاً – يغير فيها، ويبدي رأيًا لم يسمع من قبل.

وهذا الجانب اللغوي المهم يعد من عوامل نمو اللغة منذ نشأتها، ووجد لدى العرب الأوائل، ويقع في بيئاتنا المعاصرة، لكن هنا غير هناك.

ويعد ابن جني التعريب أحد عوامل النمو اللغوي، فذكره في (باب ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم)، وله جهود في طرائق التعريب التي

يمكن عن طريقها نقل اللفظ الأعجمي إلى لغة العرب، وكيف يعرف العربي الأصيل من الأجنبي الدخيل، ومن الدقة تحديد الأعجمي بأنه ما ليس ساميًا؛ لأن الساميات أخوات من أم واحدة، وهذا هو المنطق المقبول، وهو الذي اتجه إليه ابن جني في الحكم على الألفاظ، وأخذ به، فلم يذكر بين الألفاظ المعربة التي تحدث عنها إحدى الكلمات السامية، بل اقتصر على الأجنبي عنها من الفارسية أو الرومية ونحو ذلك، وهذه نظرة دقيقة وافق بها ابن جني أحدث النظريات العلمية في هذا الشأن.

وفي تمييز الدخيل من الأصيل صعوبة بالغة؛ نظرًا لجهل أقدم اللغات وأولها في الوجود، ومعرفة اللغة المعطية واللغة الآخذة، والاحتمالات في هذا الشأن لا تزيد الأمر إلا غموضًا، ومع ذلك فإن المقاييس التي وضعها الأقدمون- ومنهم ابن جني - لتحديد الدخيل والأصيل تنير لنا السبيل للاهتداء إلى كثير مما يوافقها، أما ما عداه فإن البحوث العلمية والتاريخية الحديثة يمكن أن تفيد في كشف معالمه.

وفي قضية وقوع الأعجمي في القرآن الكريم آراء متعددة بين المنع والقبول، والأرجح القول بالوقوع؛ لأن القرآن نزل للعالمين، ولأدلة أخرى كثيرة يستنتج منها صحة القول بالوقوع، ويعد ابن جني من أصحاب هذا الرأي المدافعين عنه، فالشواهد تؤيده، ولا عيب فيه، بل هو أمارة على تمثل العرب للألفاظ الأجنبية، وطواعية لغتهم لهم؛ بحيث أصبح اللفظ في موقعه فصيحًا؛ لا يغني عنه غيره مهما يكن عربيًا فصيحًا.

ويقول ابن جني بقياسية التعريب مع الاقتصار فيه على الضرورة، ولا يترك التعريب للأفراد يعربون كما يشاءون، بل يجب أن يكون في يد الجماعة المتخصصة.

وبهذا يكون ابن جني قد أرسى دعائم التعريب، وقوانينه التي بنى عليها المحدثون بحوثهم فيه.

ولابن جني آراؤه في كثير من الظواهر الدلالية، ومنها دلالة اللفظ على معان مختلفة، ودلالة عدة ألفاظ على معنى واحد، فقد أثبت وجود المشترك، والمتضاد، والمترادف، وكان له في ذلك مزيد بحث، فإنه أشار إلى منشئها من اختلاف اللهجات والمجاز، وغيرهما من أسبابها الداعية إليها، وضرب المثل بملاقاة العرب بعضهم لبعض، وساق أمثلة كثيرة على وقوعها، وبلغ من تقصيه أن أجرى هذه الظاهرة في الحروف والحركات، مثل (مِن) تبعيضًا و ابتداء، و(إن) شرطا، ونفيًا، وتوكيدًا، ونحو: درع دلاص، وأدرع دلاص، وناقة هجان ونوق هجان، وأوقعه ذلك في المبالغة أحيانًا.

وقد كشف ابن جني عن سر رائع من أسرار العربية وراء الكلمات المترادفة، فحروف اللفظ موضوعة على قدر معناه، بما يبين الحكمة في استعماله، وقد سلك في ذلك طريق الاشتقاق-الذي أولع به - في كشف هذه المعاني ، التي تلقي ضوءًا على حكمة الواضع ، وتبين شرف اللغة، ومزاياها[1].

---

(١) هذا- وغيره كثير- قد ضمنته كتابي (عبقري اللغويين أبو الفتح عثمان بن جني)، الذي يقع في أكثر من ألف صحيفة، الطبعة الأولى١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦م ، الناشر دار الفكر العربي.